

# أيدولوجية الفداء

## اتجاهات ونماذج

بقلم  
أمير الكند

انظار العالم ، ويكسب عطف الشعوب ، ويجند خلفه الشرفاء في كل مكان !

(( الفداء )) هو الذي قدم المعادل الموضوعي للحق ، وهو الذي عمد القضية بالدم ..

(( الفداء )) هو الذي اضاف للمأساة - فضلا عن بعدها الانساني - بعدها الواقعي ، والسياسي ، والحضاري ..

(( الفداء )) هو الذي أعاد لكل تضحية جوهرها ، لكل شهادة مفزأها ، هو الذي أعاد الروح لكل مناضل أسلم روحه على خنثية الصليب - أي صليب - منذ دقت المسامير في أجساد رفاق سبارتاكوس ، وأقيمت صلبانهم على الطريق الابيوس ، في روما القديمة .. حتى الآن ..

فما هي تلك القوة النفسية او الاخلاقية او الفكرية التي تكمن خلف العمل الفدائي ؟ واية دوافع تثير نائزته وتحفز انطلاقه ؟ وما ان الذي يجعل المرء يختار هذا الطريق المحفوف بالمكاره والمخاطر ، ويقدم على الغفر فوق الهوة التي تفتح اشداها في كل لحظة ؟ أسئلة كثيرة ، تلح على أي متأمل في تلك النماذج الانسانية الرائعة التي عاشت في كل عصر ، وحملت على عاتقها مهمة الانتقال بالعالم من عصر الى عصر !

\*\*\*

ومع ذلك ، ليس من الخير ان نسلك طريقنا الى تأمل تلك النماذج واستبطان أعماقها ، دون ان نتعرض لمداول كلمة « الايدولوجية » التي شاعت هي أيضا في استعمالنا اليومية ، دون ان نتفق دائما على معناها المحدد ، خصوصا وان عنوان هذا المقال قد اختارته « الآداب » مسبقا ، ومن ثم لا بد من تحديد ما يعنيه استخدامه في هذا المجال ، فن تصوري على الاقل .

١ - ما من شك في ان الاصطلاح ما زال يثير كثيرا من اللبس ، وذلك لانه لم يستخدم منذ نشأته حتى الآن بمعنى واحد . فلقد كان الفلاسفة الفرنسيون يستخدمون هذا اللفظ في القرن الثامن عشر للتعبير عن المعرفة النفسية والفلسفية وتحقيق الافكار . ولقد اشار الفيلسوف « تراسي » « Tracy » الى هذا اللفظ عام ١٧٩٦ امام المجلس الوطني في فرنسا ، حين اقترح اطلاق كلمة ايدولوجية على الفلسفة العقلية .

٢ - ولقد اشار معجم اكسفورد الى ان الايدولوجية هي علم الآراء والافكار ، او هي ذلك الجزء من الفلسفة او علم النفس الذي يبحث في أصل وطبيعة الآراء والافكار والمعتقدات ، ولا يختلف هذا التعريف كثيرا عما ذهب اليه موسوعة « كولبير » الامريكية من ان الايدولوجية هي العلم الذي يبحث الآراء والنظريات والمعتقدات التي تنشأ عن الافكار الاساسية التي تمتثلها جماعة معينة .

٣ - ولقد ذكر « هنري . د . أيكين » في كتابه « عصر الايدولوجية » ان ماركس وانجلز لا يقصران كلمة الايدولوجية على التعريف بالنظرية السياسية ، بل انها تتناول كذلك علم النظر الجدلي والاخلاق والدين واية صورة من صور الوعي التي يعبر من خلالها عمن وجهات النظر الاساسية لاجتمع ما او لطبقة اجتماعية . ( وهذا يختلف عن صورة الوعي عند الافراد ، لان هذه الصورة - فيما يرى ماركس وانجلز - انما

- التتمة على الصفحة ١٦٧ -

(( ان الفدائي مصلح اجتماعي ، ان الفدائي يحمل السلاح تعبيرا عن انتفاضة الشعب ضد مظهره . ان الفدائي يقاوم في سبيل تغيير النظام الاجتماعي القائم الذي يخضع اخوته غير المسلحين للذل والفقر ... )) ( شي جيفارا )

(( .. لن نضحك

اذا لم نضحك معا

لن نقفي

اذا لم تنته دموع العالم !.. )) ( متلاوس لاودمس )

(( نحن بذور دفنت في باطن الارض يا بطرس .. ذلك هو جيلنا ، وهذا ما ندعوه أنفسنا . لن تنبت كلها ، ولن ترتفع كلها فوق الارض عندما يقبل الربيع . ولكن لا تظن اننا نخاف ذلك ، نحن نعرف هذا ونعيش بهذه المعرفة . وسوف تفرش العناقيد الناصجة اعراشها فوق القبور التي تدوسها الاقدام ، وسوف تنسى تلك القبور .. كل شيء سوف يصبح يوما نسيا منسيا : الجزع ، والحزن .. ولكن الفطاف فقط سوف يقول لجيالك عنا ، الاحياء منا والاموات : خذ وكل لان هذا هو جسدي !.. )) ( جوليوس فوشيك )

(( الفداء )) كلمة شاع استخدامها في عالم اليوم . ويندر ان نفتح

صحيفة او مديعا او آية وسيلة اخرى من وسائل الاعلام ، دون ان نحس بهذه الكلمة تفرض نفسها فرضا على قاموسنا في الكتابة ، وتحتل مكانا بارزا في الوجدان المعاصر . وكيف يستطيع انسان هذا العصر ان يتجاهل المعارك الدامية التي تجري منذ سنوات في شعاب امريكا اللاتينية ، وغابات افريقيا ، او يغمض عينيه عن الملحمة البطولية التي يدور رحاها كل لحظة في فيتنام ؟

واذا كانت قوى الشر في العالم قد استطاعت لسنوات عدة ان تموه على الضمير الانساني ، وتليس دولة عنصرية اقامها الامبرياليون قاعدة لهم ثوب الشرعية ، فان ذلك الضمير الانساني قد بدأ يستفيق من جرعات الاكاذيب المكثفة ، والاضاليل الملقفة ، ويستشعر نوعا من الاحساس بالذنب ، او على الاقل لونا من ألوان الشعور بان ثمة خطأ قاتلا يكمن في ذلك البناء الذي بناه ، او الذي بني يوما تحت سمعه وبصره ، دون ان يظرف له جفن او ترتفع له يد لتقول « لا » ، وكان من نتيجته مئات الشهداء ، وملايين من المشردين والضائعين ، وتكريس للاغتصاب والقهر والظلم !

وصحيح ان سقوط الاقنعة عن النيات التوسعية لسدى حكام اسرائيل ، والنشاط الواسع للاجهزة الدبلوماسية العربية بعد وقوع النكسة ، والوقف الثابتة الغالبية العظمى من الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي ( اننا نسمتي هنا بالطبع من هذه الدول رومانيا نظرا لموقفها المتردد المشوب بالعطف على اسرائيل ) ، فضلا عن الموقف المتفهم الواسع الافق الذي اتخذته فرنسا اخيرا ، صحيح ان هذا كله قد ساعد على افافة الضمير الانساني من خدره ، او ربما كان هو في حد ذاته تعبيرا عن هذه الافافة ، ولكن ينبغي ان يقال في غير قليل من الحسم ان وقفة الشعب الفلسطيني نفسه ، وصموده رغم المأساة ، ثم انطلاقه في العمل الفدائي متصاعدا بالمقاومة على طريق حرب التحرير الشعبية ، هو العامل الاول ، السذي استطاع ان يشد

## ايدولوجية الفداء

- تمة المنشور على الصفحة ٢٩ -

هي عرضة للتغيير والتبديل مع كل تغير او تبدل يطرأ على حياثهم المادية او تطورهم الاجتماعي . والواقع ان المفهوم الماركسي لكلمة الايدولوجية قد تطور كثيرا منذ ماركس حتى الآن ، بحيث انه يستخدم اليوم في الكتابات الماركسية بمعنى مختلف عما كان يعنيه ماركس نفسه من استخدامه . فلقد كان ماركس يقول في كتابه « الايدولوجية الالمانية » : « في كل الايدولوجية يبدو لنا الناس وعلاقاتهم وكانهم في وضع مقلوب ، راسهم الى اسفل كما لو كانوا في غرفة التصوير السوداء . » ومعنى ذلك ان ماركس كان يتصور الايدولوجية كمقابل للتفكير العلمي ، ويرى في أفكاره وفلسفته تخطيا للاوهام التي تنبع من الايدولوجية ، ولقد استخدم هذا المعنى في كتابه ، في حديثه عن الفلاسفة الذين كانوا اسرى تأثيرات لم يكونوا على وعي واضح بها ، أي أسرى لاهام وأفكار وتصورات لا أساس لها في الواقع الموضوعي المستقل عن الذات . ولكن الكتاب والمفكرين الماركسيين طوردوا هذا المفهوم بعد ذلك بحيث اننا نجد مفكرا ماركسيا مثل كورنفورت يستخدم كلمة الايدولوجية للدلالة على النظرة المميزة لطبقة معينة في مرحلة تاريخية محددة ، بما في ذلك العناصر الوهمية والواقعية ( أي الحقيقية او العلمية ) . ونجد مفكرا ماركسيا آخر مشمل « يوليتيزر » يقول ان الايدولوجية هي « مجموعة الافكار التي تشكل كلا او نظرية او مذهبها او حالة ذهنية في بعض الاحيان فحسب » . ثم شاع اللفظ في الكتابات الماركسية بحيث اننا نكاد نقرأه في كل حديث عن الافكار والاتجاهات والنظريات والمذاهب التي تعكس الوضع الخاص لطبقة من الطبقات في مرحلة ما من مراحل تطورها ، فنسمع « ايدولوجية الطبقة العاملة » ، و « الايدولوجية البورجوازية الثورية » ( إشارة الى البورجوازية كطبقة ثورية في ظل الصراع ضد الاقطاع ) ، و « الايدولوجية البورجوازية الصغيرة » . الخ . .

٤ - ولعل استخدامنا في كتاباتنا السيارة لهذا الاصطلاح يقصد به « العقائدية » . والواقع ان العقائدية ليست مرادفا بحال من الاحوال - اذا توخينا الدقة - لكلمة الايدولوجية . لان الايدولوجية اوسع بكثير من مجرد « الاعتقاد » ، وان كان الاعتقاد يشكل عنصرا بالطبع من عناصرها . واذا جاز لي في هذا الصدد ان اؤكد معنى من معاني الايدولوجية فأنني أقول ان هذا المعنى يشير الى الخصائص العقلية والفكرية والنفسية السائدة بين افراد طبقة ما في عمر معين او في مرحلة تاريخية بذاتها . وهذا المعنى يتضمن بداخله - بدايه - الجانب العقلي والفكري والنفسي المنعكس عن الواقع الموضوعي ، والجانب الذي يتعلق بالوهم والتصور الذاتي الذي يدفع اليه في كل عصر - حتى الآن - الايمان لدى البعض بالخرافات والاساطير والقضاء والقدر وقوى الغيب !



واذا كان الامر كذلك فما الذي نعنيه بايدولوجية الفداء في هذا المقال ؟

ما من شك في أن العملية الفدائية هي في النهاية محصلة لمجموعة من العوامل العقلية والفكرية والنفسية والايمانية . انها عمل فردي ، من حيث ان الرجل الفدائي يختار بمحض ارادته ان يتخرط في السلك الفدائي دون ان تجبره قوة رسمية او سلطة من السلطات على ذلك . والاختيار - بصرف النظر عن كل النظريات الجديدة - هو في التحليل الاخير فعل فردي . ولكن هذا المعنى قد يحدث خلطا بين الفكرة « الفدائية » والفكرة « الارهابية » ، وبعبارة اخرى ما الذي يميز الفدائي عن الارهابي ؟ الواقع ان القول بفردية الممثل الفدائي

لا يعني مطلقا نفي جوهره « الجماعي » . فالعمل الفدائي عمل منظم ، وليس عملا عشوائيا تلقائيا يتدفق اليه الفرد بعيدا عن الجماعة وتحقيقا لفكرة خاصة به او لوهم مسيطر عليه .

العمل الفدائي عمل يرتبط بخطة جماعية تحددها جماعة معينة في لحظة ما كوسيلة لتحقيق هدفها . واذا كان الانخراط في سلك الفدائية « فعلا فرديا حرا » ، فالعمل في اطار الفدائية هو « فعل جماعني ملتزم » . واذا جاز لنا ان نقيم تشبيها بين الرجل الفدائي والرجل الحزبي ، لربما اتضح ما نقصده في هذا الصدد ، فالرجل الحزبي يمضي بمحض ارادته وينضم الى الحزب . وهو في الوقت نفسه قادر في كل لحظة على ترك الحزب والتخلي عن مكانه فيه ، ولكنه ما دام موجودا في اطار الحزب فهو ملتزم بخطته وسياسته ، بفكره وتطبيقه . وهكذا الحال بالنسبة للفدائي يمضي بقدميه مختارا صوب خط النار ، ولكنه حين يصل اليه لا بد له من الخضوع للمنطق الذي يحكم الصف الواقف الى جواره ، والذي يشكل هو لبنة واحدة في بنائه .

ولكن قد يقال أيضا ان الارهابي رجل يندر ان يقف وحده فهو - في الغالب - جزء من جماعة صغيرة لها خطتها ولها تنظيمها ولها أيضا طقوسها . والواقع ان هذه النقطة تقودنا الى السمة الثالثة التي يتصف بها العمل الفدائي ، وهي « الهدف العام التقدمي » الذي تتميز به الحركة الفدائية . فالحركة الفدائية هي حركة تمضي نحو غاية تاريخية محددة . وليست حركة تدور حول نفسها بلا هدف . انها وسيلة لتحقيق هدف ما يعز تحقيقه بالوسائل الاخرى السياسية والسلمية او عن طريق الجيوش النظامية . والجانب الاكبر من تاريخ الحركات الفدائية في العالم كان تحقيقا لهذا الهدف - كل منها في عصرها واطارها - ، ولندكر مثلا الحركة الفدائية في جنوب افريقيا ابان حرب البوير ، والحركة الفدائية في الصين ابان المسيرة الكبرى ، والحركة الفدائية في كوبا ، والحركة الفدائية في الاتحاد السوفياتي على اثر عزيمة الجيش في اول مراحل الهجوم النازي ، والحركة الفدائية في فيتنام . . وانجولا . . وجواتيمالا . . ثم حركتنا الفدائية في فلسطين . ولقد كانت هذه الحركات كلها اتجاها نحو هدف جماعي تقدمي عام . حركات تستهدف بوسيلتها ما عجزت عنه - او ما تعجز عنه - السياسة او الدبلوماسية او الجيوش النظامية التقليدية !

ومعنى ذلك ان العمل الفدائي ، هو فعل فردي حر في انطلاقته الاولى ، ولكنه عمل جماعي ملتزم منذ اللحظة التي ينضم فيها الفدائي الى الحركة الفدائية ، وهذا ما يفرق بين الممثل الفدائي والمغامرة الفردية ، وهو عمل منظم يرتبط بهدف تقدمي عام يحقق مصالح الغالبية من المجتمع او كل المجتمع في لحظة ما ( لحظة اندلاع المشكلة الوطنية ) وهذا ما يفرق بينه وبين الحركات الارهابية .

وفي ضوء التعريف الذي تقدم لكلمة الايدولوجية يمكننا ان نحدد ان العمل الفدائي لا ينتمي دائما الى ايدولوجية واحدة ! فحركة سبارتاكوس مثلا كانت في جوهرها حركة فدائية ، وحركة الدفاع عن المسيحية في عصر الشهداء كانت حركة فدائية ، ( وفكرة الفداء في حد ذاتها ركن هام من اركان المسيحية ) ، والحركة التي قامت في بداية الاسلام على يدي ابي بكر الصديق ، وعلي بن ابي طالب ، ثم على يدي « الخوارج » بعد ذلك فسي عهد الدولة الاموية وصدر الدولة العباسية ، كانت ايضا حركة فدائية . ثم هناك الحركات الفدائية التي تدور داخل الاطار الوطني وفيها نستطيع ان ندرج كل الحركات التي تمت ابان عمليات الاحتلال النازي في أوروبا ، والاحتلال الاستعماري في دول الشرق ، والاحتلال الصهيوني لفلسطين ، وبممكننا ان نذكر كذلك الحركات الفدائية التي دارت في اطار الصراعات الطبقة والحروب الاهلية وتحته تندرج الحركات التي تمت في الاتحاد السوفياتي والصين وتشيكوسلوفاكيا ، وهناك حالات يندمج فيها الهدف الوطني مع الهدف الطبقي وتختصر المراحل التاريخية وتتركز المعارك في معركة وطنية ضد المحتل الخارجي وضد انصاره او عملائه في الداخل مستهدفة طرد المحتل واقامة نظام اشتراكي في الوقت نفسه

كما هو الحال في فيتنام على سبيل المثال ، وهناك أيضا حركات فدائية لا تنطلق من قاعدة طبقية داخل الوطن القومي وحده ، بل من قاعدة طبقية على نطاق العالم وهي ما تعرف في قاموس السياسي باسم الاممية ، ولعل ابرز مثال على ذلك هسو « الكتيبة الاممية » او « اللواء الدولي » الذي شارك في الحرب الاسبانية ضد الفرنكويين مساندا ومؤازرا للانتصار من الجمهوريين ..

هناك اذن دوافع متعددة ، او بتعبير أدق ، خلفيات ايديولوجية متنوعة خلف العمل الفدائي ، نستطيع ان نميز فيها اربعة اتجاهات رئيسية : ١ - الاتجاه الديني ، ٢ - الاتجاه الوطني ، ٣ - الاتجاه الاشتراكي ، ٤ - الاتجاه الاممي .

وما من شك في ان هذه الاتجاهات الاربعة في ايديولوجية الفداء تشترك معا في بعض السمات ، ويتميز كل منها بطبيعة الحال بسمات أخرى محددة . ولعل السمات المشتركة هي الصفات « الاخلاقية » التي تنطوي عليها شخصية الرجل الفدائي ، مثل التضحية ، وانكار الذات ، والاخلاص للمبدأ ، والالتزام بالهدف العام ، وعدم الرهبة من ملاقات الموت ( وهذا يختلف عن عدم الحرص على الحياة ! ) ، فضلا عن الامل والتفاؤل والايمان - شبه الديني أحيانا - بحتمية النصر .

\*\*\*

اما السمات الخاصة لكل اتجاه فهي تدعونا الى الحديث عن كل واحد منها على حدة ...

## ١ - الاتجاه الديني

ما من شك في ان فكرة الفداء - كما تقدم - تمثل ركنا هاما من اركان الفلسفة المسيحية . ولقد كان « المسيح » نفسه رمزا وتجييدا لهذه الفكرة ، لانه - في اطار اللاهوت المسيحي - هو الذي اقتدى البشر جميعا بنفسه ، وقدم حياته فوق الصليب ثمنا لخلاصهم . وهذه الفكرة ترتبط بالطبع بفكرة اخرى تمثل ركنا آخر من اركان الفلسفة المسيحية وهي فكرة الخطيئة . ولعل هذين الركنين هما اللذان يمثلان القطين الاساسيين في الفكر المسيحي كله ، او كما كان يقول « بسكال » في « الخواطر » : « هذه هي العقيدة المسيحية : وفيها شقان : الانسان الاول والخطيئة ثم الانسان الجديد والفداء . آدم والمسيح . وفي هذين الشقين ، الدين المسيحي كله » .

ولقد تعرضت المسيحية شأن الدعوات الجديدة دائما في منشا ظهورها لحركات عنيفة من القهر والاضطهاد على ايدي الرومان . واصبح هناك ما يسمى بعصر الشهداء ، وهو أحد الفصول الهامة في تاريخ انتشار المسيحية . والكنيسة القبطية فسي مصر تؤرخ لشهادتها تبعا لحركات الاضطهاد التي أصابتهم ، ويتفق معظم المؤرخين على انها عشر ، بدأت بالاضطهاد الذي وقع على مسيحيي الاسكندرية فسي عهد نيرون « الملك الدموي » من سنة ٦٥ الى سنة ٦٨ ميلادية ، عندما اختطف الرومانيون مرقص الرسول من كنيسة بوكاليا بالاسكندرية ، وهجسهم الدهماء على المسيحيين الذين تقبلوا الدين الجديد واغرقوهم في سيل من الدم . وكان أول دم اريق على ارض مصر هو دم مرقص الرسول في ٢٦ ابريل سنة ٦٨ ميلادية ، ودفنت رفاتة في الكنيسة التي انشأها بالاسكندرية ، ثم نقل جسده فيما بعد الى مدينة البندقية . واستحق مرقص الرسول لقب أول فدائي مسيحي واجهه الامبراطورية الرومانية .

ولقد تعددت الاضطهادات بعد ذلك في القرون الثلاثة الاولى حتى بدايات القرن الرابع حيث وصلت عمليات القمع والقهر ذروتها على ايدي ديو قلدانوس ( ٢٨٤ - ٣٠٥ ) م . حين اصدر هذا الحاكم امرا بهدم الكنائس ، وحرقت الكتب المسيحية ، وراح يلقي القبض على الاساقفة ويعمل فيهم ذبحا وقتيلا حتى غرقت البلاد في طوفان من الدم . وظل الحال هكذا حتى قرر « قسطنطين » الاعتراف بالدين المسيحي فسي الامبراطورية الرومانية . ووقع في عام ٣١٣ مرسوم ميلان الذي يبيح حرية المعتقد الديني .

وكان لا بد لاعمال الاضطهاد هذه ان تولد رد فسل قويا وسط معتنقي الديانة الجديدة . وردود الفعل هذه هي التي يمكننا ان نطلق عليها في شيء يسير من التجوز حركات فدائية ، على الرغم من انها لم تحمل السلاح قط ، وكانت في جوهرها حركات سلبية ، وهو ما يتفق مع منطق المسيحية الخاص ، ويتلادم مع مفهومها عن الفداء . ان قصص كفاح الاساقفة ضد الاباطرة الرومان ، وقصص بناء الكنائس السرية ، وصمود المؤمنين من المواطنين العاديين امام الموجات الرهبة من القهر والقمع والارهاب ، قصص معروفة لا نحس بالحاجة الى الخوض فيها هنا . ولكننا مع ذلك نلاحظ ملاحظتين :

الاولى : ان هذه الحركات لم تكن خاضعة لشكل من اشكال التنظيم الواعي ، بل كانت في معظمها حركات تلقائية - حتى وان اتخذت صورة جماعية - ، اقرب الى رد الفعل منها الى العمل المنظم الهادف . والثانية : ان « الفدائي المسيحي » الذي كان يسترخص حياته في سبيل عقيدته ، كان على يقين كامل من ان مكانا قد اعد له مسبقا « في ملكوت السموات » . ولم تكن القضية بالنسبة اليه هي نشر العقيدة ، ولكن الثبات على الايمان ، واثبات انه مستحق للجلوس بين يدي الله . ( وان كانت مواقف هؤلاء الشهداء قد عملت بالطبع على نشر العقيدة في ربوع الامبراطورية الرومانية كلها ) .

اما الاسلام فلقد كان تصوره لفكرة الفداء تصورا ايجابيا . واقتد تضمن القرآن آيات كثيرة تحض على الفداء ، وتدفع الى البذل والتضحية .

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما ، وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدين الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا ، الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا اولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا » . ( من سورة النساء ) .

وفي سورة « التوبة » ترد هذه الآيات :

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم . »

وواضح ان فكرة الفداء في الاسلام شأنها فسي المسيحية تتضمن فكرة الجزاء في الآخرة ، ووعد الجنة . وفي سورة آل عمران آيات صريحة تدل على ذلك : ( فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم ، واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ، ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب . )

ولقد عرف الاسلام قصص الفدائيين منذ نشأته الاولى . ولعل قصة ابراهيم وولده اسماعيل من اوائل القصص التي تحدثت عن الفداء . ولعل قصة الامام علي بن أبي طالب ، فسي موقفه الفدائي الكبير ، حين نام مكان الرسول في ليلة الهجرة ، وهو على يقين من ان الرسول هدف للمناوئين له من اعداء الدين الجديد ، قصة معروفة ومشهورة لا تحتاج لمزيد شرح او ايضاح .

وعلى الرغم من ان « فرقة الخوارج » لهم آراء موضع اخذ وعطاء وشد وجذب حتى الآن ، فان تاريخهم كفرقة منشدة فسي العبادة ، مخلصا لما تؤمن به ، لا يصيبها وهن او تردد في خوض المارك من أجل ما تتصور انه الحق ، معروف ومشهور فسي تاريخ الحركات الدينية الاسلامية ، على الاخص مقاومتهم الفدائية في زمن الدولة الاموية ، وفي صدر الدولة العباسية . ولعل شاعرهم الكبير « قطري بن الفجاءة » ، بل وزوجته « أم حكيم » كانا من اشجع الفرسان فسي مسيرة « الخوارج » الفدائية .

ما الذي تؤدي اليه هذه الاقوال جميعا ؟

يسقط في معركة الحرية .. لا يموت أبدا .. لا يستطيع ان يموت .. (!)  
الم يقل هو نفسه ان « المعركة ضارية حقود » ؟  
« لقد سقطت . وسيحتل آخر مكاني .  
وهذا كل شيء .

ماذا يهم هنا اسم الشخص !  
سأرمي بالرصاص ، ثم .. الدود !  
كل هذا بسيط ، منطقي .

ولكن في العاصفة  
سنتكون دوما معك

يا شعبي

ذلك لاننا أحببتك ! »

ولكن هؤلاء جميعا ، شعراء وكتابا ، لديهم الوعي والثقافة وبصيرة التاريخ . والتزامهم قد يكون - فضلا عن مصادره في الفريضة الوطنية العامة - نابعا من ادراكهم للمصير التاريخي وللمسيرة الاجتماعية المتقدمة دائما رغم كل المعوقات . ومع ذلك فان صوت الرجل العادي لا يقل عن ذلك قوة ولا صمودا ولا ايمانا .

هوذا فلاح مصري من إحدى قرى « الفريضة » .. اسمه « يوسف ابو ديه » ، واحد من الذين ساروا خلف عرابي ، وتعلقوا بالامل في النصر على الانجليز ، وصمدوا على انكسار الثورة عندما تالتت عليها سطوة الاحتلال وخيانة الخديوي وتردد كبار ملاك الارض . عندما اقتادوه الى القنصل سأله حاكم الفريضة :

- ماذا تريد لنحضره لك قبل ان تموت ؟

قال يوسف في كبرياء تاريخي عريق :

- ماذا أريد ؟ أريد لمصر الاستقلال . اي شيء يرضيني وقد قطعتم آمالنا .. لكن اليوم لكم وغدا لنا .. !

الا نسمع في صوته نبرات جبيريل بييري ؟ الا يتردد في سمعنا صوت فابتراروف ؟ الا يعيد الى وجداننا من جديد العاطفة نفسها والشعور الذي يخالجننا ونحن نتذكر كسل الابطال الوطنيين الذين سقطوا في كل مكان .. وفي أي مكان .. من رحاب الارض ؟ انه فلاح بسيط ، ولكنه يلخص بموقفه معالم الفريضة الوطنية كلها ، وببلسور البصيرة التاريخية التلقائية ، في اعماق كل مواطن شريف !  
واذا كان لنا ان نحدد السمات الخاصة لهذا الاتجاه الوطني في ايدولوجية الفداء ، فاننا نستطيع ان نميز فيه هذه السمات .

١ - انه اتجاه يستطيع ان يجمع كل عناصر الامة ضد المسدود الواحد المشترك . وهو يضم في اهابه اتجاهات قد تبدو متنافرة اذا نظرنا اليها من الزاوية الاجتماعية الخالصة . اننا نلمح هنا في هذا الاطار الوطني : الراسمالي الوطني ، الى جانب العامل والفلاح معا . اننا نلمح المثقف الى جانب من لا يستطيع ان يكتب او يقرأ . اننا نلمح المناضل الذي يعلم بمكان في الجنة والاستشهاد في سبيل الله ، والمناضل الذي يبحث عن الخلود في ضمير الامة ، والمناضل الذي يحفر له اسما في ذاكرة الاجيال القادمة !

٢ - على الرغم من وضوح الهدف في المعركة الوطنية ، وتبلسور الدوافع النفسية في اعماق الفدائي الوطني ، فان « الاندفاع الوطني » هو في كثير من الاحيان عمل تلقائي غريزي يتبع من الطبقات العميقة المترسبة في اعماق النفس الانسانية ، او - اذا شئنا تعبيرا اكثر دقة - فان الجانب العاطفي فيه اغلب من الجانب العقلي المجرد . ( وهو امر لا يقلل من حقيقة ان المواقف الانسانية عامة انعكاس لمواقف ايدولوجية محددة . بمعنى ان الراسمالي الوطني مثلا في نضاله ضد الاستعمار يبحث عن الاستئثار بالسوق ، والاشتراكي في نضاله ضد الاستعمار يبحث عن انجاز الثورة الديمقراطية الوطنية على طريق الثورة الاشتراكية ! )

٣ - اذا جاز لنا ان نفرق بين الاتجاه الديني ، والاتجاه الوطني في ايدولوجية الفداء ، فاننا نقول ان الاتجاه الاول يتصلق بالعالمية « الفائية » اما الاتجاه الثاني فانه اقرب الى العلة « الفاعلة » . ان

انها تؤدي الى ان الاتجاه الديني في ايدولوجية الفداء يقوم على اساس فكرة « الجزء » الديني في العالم الآخر . انه نوع من دفع الثمن مقدما لمكان في الجنة . نوع من المفاوضة او المبادلة للحياة الآخرة بالحياة الدنيا . وهذا الاتجاه ينهض على اساس من « الايمان الوجداني » الراسخ والعميق ، المتعلق بعالم آخر ، المؤمن بان الحياة جسر بين الوجود والوجود الاكمل والاشمل في رحاب الله .

## ٢ - الاتجاه الوطني

ذات يوم تساءل جيفارا قائلا : من هو الفدائي ؟ وأجاب قائلا :

« الفدائي في حرب العصابات هو مقاتل ممتاز مصطفى من الشعب ، ومناضل طبيعي على رأس المعركة في سبيل التحرر .. از حرب العصابات ، خلافا للاعتقاد السائد ، ليست حربا صغيرة محدودة ، حربا تقوم بها تجمعات من الاقلية ضد جيش قوي . كلا ، فهي حروب الشعب بأسره ضد الاضطهاد السائد .

« الفدائي مصلح اجتماعي .. الفدائي يحمل السلاح تعبيرا عن انتفاضة الشعب ضد مضطهديه ..

« الفدائي يقاتل في سبيل تغيير النظام الاجتماعي القائم الذي يخضع اخوته غير المسلحين للذل والفقير ، ويناضل ضد الأوضاع الاجتماعية الخاصة للدولة في الوقت المقرر .. الفدائي هو الذي صمم على الاطاحة بنظام الاضطهاد بكل الطاقات التي تتيحها له الظروف .. »  
ومنذ اقدم عصور التاريخ عرفت الانسانية ذلك اللون الخالد من الفداء ، الفداء في سبيل التراب الوطني . ان التعلق بالارض الوطنية جزء لا يتجزأ من التركيب النفسي لكل انسان . شيء ما كالغريزة ، او كالتنفس او كالتبضع . لا حياة للكائن الانساني بدون ان تمارس تلك الوظائف عملها .

ولقد اجتازت شعوب كثيرة في الارض برزخ الآلام هذا في سبيل الدفاع عن حريتها واستقلالها ضد مفتصبيها . يتساوى في ذلك شعب صغير كشعب فيتنام وشعب كبير ، كشعب - او كشعوب - الاتحاد السوفياتي . ولقد احتفظت الذاكرة القومية لكل شعب بفضص كثيرة في ملحمة الدفاع عن الارض . وقصص فيتنام معروفة لقارىء اليوم ، تظالع بها الصحف والاذاعات كل صباح ومساء . وقصة المقاومة الفلسطينية الرائعة ، تتعلق بها ابصارنا ، وتنعقد عليها آمالنا في كل لحظة من أجل تحرير ارضنا المحتلة !

ماذا نتذكر من نماذج هذا الاتجاه اذن ؟ قصة المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي ، تلك القصة الخالدة التي احتلت مكانا واسعا في تاريخ الادب الفرنسي بل وفي تاريخ الشخصية الفرنسية كلها . ان صوت « جيريل بييري » ما زال يدوي رغم مرور السنين .. حين اقتاده جنود النازي لينفذوا فيه حكم الاعدام . خلع « بييري » العصابة من فوق عينيه وحقق في الجلادين بملء الثقة التي يحملها في قلبه بختمية النصر . وقال « اني اموت من أجل الفد .. واياهم الحافلة بالانغيات » !

أندرك اشعار ايلوار وارجون وقصص سارتر وسيهون دي بوفوار والسا تريوليه ورسوم بيكاسو .. ونعيد تصفح تلك الروائع التي الهمتها المقاومة روحها ، وغدت هي نفسها المقاومة بوقودها ، وقادت معركة الفداء في وجه الاحتلال والخيانة حتى تحررت باريس وتطهرت ؟  
أندرك قصة المقاومة البطولية بالاسلحة خلف الخطوط ، وسط اطباق الثلوج المتكاثفة ، عبر السهوب التي تطبق عليها قوات النازي من كل صوب ، وعمال ستالينجراد ، والفلاحين المويجيك ، يدفون ضريبة الدم من أجل الحفاظ على « الوطن » الاشتراكي الاول ؟

أندرك قصة « فابتراروف » شاعر بلغاريا العظيم ، الذي رفع رأسه في وجه الجلادين دون ان يطرق له جفن قائلا : « لقد ناضلت في سبيل سعادة وطني وشعبي فاذا كان علي ان اعاقب لاجل ذلك فانسا مستعد لتلقي جزائي ! » وعندما تلي حكم الاعدام واقيد الى المنصلة ، لم يضعف ولم يتردد ولم تفر من عينيه دمعة بل غنى مع رفاقه : « من

المحرك الأكبر للايديولوجية الدينية هو «الجزء» الذي يتحصل للمستشهد في سبيل الله ثوابا في الجنة . ومن ثم فهو محرك فردي تحفزه المنفعة الخاصة «المؤجلة» ، وتثيره الاعتبارات التي تدور حول الربح والخسارة تبعا لتصوراته الفكرية والميتافيزيقية . امسا الاتجاه الآخر ، فانه انعكاس للشعور بالحياة ذاتها ، والعمل على حمايتها ، انه قوة محركة تؤثر في الكائن الانساني بصرف النظر عن الغاية الفردية التي قد تتحقق او لا تتحقق . ان العامل الذي يقف في خط النار لا يعي تماما الارباح التي سوف تعود عليه من طرد الاستعمار وجنود الاحتلال ، بل قد يحتل الرأسماليون الوطنيون مكان القوى الاستعمارية الراحلة ، ويظل هو نفسه خاضعا للاستقلال كما كان مهما تغيرت اساليبه او تعددت شخصيات القائمين به ! والامر نفسه ينطبق على الفلاح الذي قد لا تهبه وقفته ضد المستعمرين الارض التي يزرعها ! ان في الكائن الانساني غريزة للدفاع عن الحياة ، للدفاع عن الارض بصرف النظر عن حساب الربح والخسارة ، ان «الضرورة» تصبح فعلا ، وعملا ، وسلوكا . ان قانون الحياة يحقق نفسه من خلال هذا المبدأ الوطني الفردي ، الواقعي ، الذي لا ينبع من اية قوة متعالية ، ولا يشق من اي مصدر فوق الطبيعة !

## ٢ - الاتجاه الاشتراكي

والحق ان الاتجاه الاشتراكي في ايدولوجية الفداء ، يتضمن بداخله الاتجاه الوطني ، ولكنه يعلو عليه . فالرجل الاشتراكي هو اولا وقبل كل شيء رجل وطني . ولكن وطنيته لا تقتصر على مفهوم الدفاع عن الارض فحسب ، ولكنها تنطوي على مفهوم ارحب واعمق حول تغيير الارض نفسها . ان الاشتراكية اعلى درجة من درجات الوطنية . والاشتراكيون كانوا دائما - وما زالوا - كتيبة الصدام في العمل الفدائي الوطني . ان ارواح اعمال المقاومة الفدائية الفرنسية ابان الاحتلال النازي قام بها الفدائيون الاشتراكيون . واعظم البطولات التي خلدتها ملحمة سنالينجراد لم تكن مجرد دفاع عن الارض فحسب ، ولكنها كانت في جوهرها دفاعا عن الكيان الاشتراكي فوق الارض السوفياتية . ماذا اقول ؟ ان اليومين الخالدين اللذين عاشتهما القاهرة بعد هزيمة يونيو وانكسار الجيش المصري في سيناء ، يومي ٩ ، ١٠ يونيو لم يكونا مجرد تعبير عن السخط والضيق والاسى للهزيمة والانتكاس ، ولم يكونا استعدادا للبدل والتضحية في سبيل الدفاع عن الارض المحتلة في كل وطن عربي ، ولكنهما ايضا كانا في اعماقهما تعبيراً عن الوقفة الصامدة في الدفاع عن المكاسب الاشتراكية التي حققها العمال والفلاحون المصريون .. وجزعا من ضياع هذه المكاسب اذا ما اصاب النظام في مصر ما تمناه له الامبرياليون والصهيونيون من هزيمة وانكسار !

ها هنا تتوحد العلة الفائية بالعلة الفاعلة !

العلة الفائية التي لا تتعلق هنا بهدف بعيد المنال في عالم آخر ، ولكن بهدف محدد يمكن ان ينال فوق هذه الارض . العلة الفائية التي لا تدور حول جزاء فردي حتى ولو كان الخلود في الجنة ، بل جزاء جماعي يحقق الفردوس الممكن لكل . وباتحاد هاتين العلتين يتحقق المركب المتقدم في الاتجاهين السابقين ، وتبلغ التضحية ذروتها ، ويصل أقداء الى قمته .

والنماذج التي يمكن ان نضربها على هذا الاتجاه كثيرة . ولعل البطولات التي يقدمها الفدائيون في فيثنام هي الخبز اليومي لكل مناضل لا يؤمن بضرورة تغيير العالم فحسب ، بل يؤمن بان القضاء على الاستعمار الامريكي هو الطريق لتغيير العالم !

ومع ذلك ، ينبغي ان نذكر هنا ان الفدائي الذي يؤمن او يعتقد الايديولوجية الاشتراكية انسان يعمل من اجل اللحظة المقبلة اكثر مما يعمل للحظة الراهنة . انه رسول الاجيال المقبلة اكثر مما هو تجسيد لمكاسب الاجيال الحاضرة . صحيح ان الاشتراكية ، بمجرد قيام سلطتها ، تغير النظام الاستقلالي السابق وتضع الاسس لاقامة نظام جديد . ولكن

الجيل الذي يدفع الثمن لاقامة الاشتراكية هو - على الاغلب - اقل الاجيال استمناعا بشمارها . اني اذكر هنا تلك الكلمات الرائعة ، الحزينة ، المجيدة ، التي كتبها «جوليوس فوشيلو» ذات يوم حين كان يمارس نضاله البطولي ضد الاحتلال النازي في بلاده ، وضد القوى المستقلة لشعبه في الوقت نفسه :

« نحن بذور دفنت في باطن الارض يا بطرس .. ذلك هو جيلنا ، وهذا ما ندعوه انفسنا .. ليست كلها سوف تثبت ، وليست كلها سوف ترتفع فوق الارض عندما يقبل الربيع .. ولكن لا تظن اننا نخاف ذلك . نحن نعرف هذا ونعيش بهذه المعرفة . لسوف تفرش العناقيد الناضجة اعراشها فوق القبور التي تدوسها الاقدام ، ولسوف تنسى تلك القبور . كل شيء سوف يصبح يوما نسيا منسيا . الجوزع . والحزن . القطاف فقط ، سوف يقول لجيلك عنا ، الاحياء منا والاموات : خذ وكل .. لان هذا هو جسدي ! .. »

وليس اروع من هذه الكلمات تعبيراً عن الجيل الفادي .. الجيل الذي يزرع دائما ليحصد الآتون من بعده ! وليس اروع من كلماته لقضائه ايضا ، حينما حكموا عليه بالموت ، تعبيراً عن جيل الفداء كله ..

« ان حكمكم سوف ينل الان . اني اعرفه . انه يقضي بالموت على انسان !

ولكن حكمي عليكم قد صدر منذ بعيد . انه مكتوب بدم كل شرفاء العالم : الموت للفاشية !

الموت لعبودية الرأسمالية ! الحياة للانسان ! المستقبل للاشتراكية ! .. »

## ٤ - الاتجاه الاممي

واذا كان الاتجاه الوطني تعبيراً عن اندفاع العلة الفاعلة ، والاتجاه الاشتراكي تعبيراً عن المركب الناجم عن اتحاد العلة الفائية بالعلة

## مؤسسة نوفل للطباعة والنشر

و

## « بيت الحكمة »

يقدمان

## الحرب العالمية الثانية

للمؤرخ والصحفي الشهير

ريهون كارتييه

( في جزئين )

صدر حديثا

الأرض المثخنة الحزينة : رالف فوكس ، وديفيد جيست ، ولوركا ، ..  
وكودويل أيضا . مات كودويل وهو يحمي انسحابا لثلاثة من رفاقه ،  
وقد كانوا جميعا ، وهو معهم ، يحرسون موقعا على قمة أحد التلال في  
وادي جاراما !

وقد يكون الطريق بين لندن حيث كان يعيش ، ووادي جاراما ،  
طويلا في حساب المسافات .. ولكنه كان طريقا قصيرا للغاية في حساب  
من يؤمن بأن الفكر والتطبيق شيء واحد ، وأن الواجب يكمن هناك ،  
حيث وحدة النظر والعمل ، وحيث الحاجة إليه أشد !

وما من شك في أن كودويل ورفاقه في « الكتبية الاممية » من  
الكتاب والفنانين والمفكرين ، هم وحدهم الذين عرفناهم ، أو امكنا ان  
نعرفهم ، وسط ذلك « الاليوم » الضخم الذي يضم صورا لابطال  
مجهولين من بسطاء الناس الذين عاشوا في الظل ، وماتوا في الظل  
أيضا . ولكنه - على أي حال - يمثل رمزا لهم جميعا ، ويعبر بدمه عن  
أيدولوجية ذلك الطابور الطويل ، الذي رسم تلك اللوحة المشرفة  
- رغم اطارها الحزين - لوحدة المصير الانساني .

\*\*\*

وإذا كنا نخوض اليوم معركة من أروع معارك الفداء في التاريخ  
المعاصر ، وسط عالم ما زال جانبه المعادي - رغم كل شيء - أرجح كفة  
من جانبه المعصد والمساند ..

وإذا كنا نؤمن بأن وقفة الشعب الفلسطيني نفسه ، وصموده رغم  
المأساة ، وتصاعده على طريق النضال نحو حرب التحرير الشعبية ، هو  
وحده القادر على أن يقيم سدا في وجه الطوفان ..

فلنتذكر إذن - مرة أخرى - أن « الفداء » ، مهما كانت نماذجه أو  
اتجاهاته ، هو وحده الذي يقدم المعادل الموضوعي للحق ، وهو وحده  
الذي يضيف لمأساتنا - فضلا عن بعدها الانساني - بعدها الواقعي  
والسياسي والحضاري ..

ولنتذكر أخيرا - ولكن دائما - أن العمل الفدائي ، هو العمل  
الوحيد الذي يستطيع أن يحول بحق ، دون أن يمتد طريق الصليان ..  
إلى ما لا نهاية !

أمير اسكندر

القاهرة

الفاعلة ، فإن الاتجاه الأممي هو امتداد لذلك الاتجاه الاشتراكي على  
نطاق العالم كله ، لا على النطاق القومي فحسب . أن الاتجاه الأممي  
ينطوي على أعلى درجة من درجات وحدة الفكر والعمل . أنه الشعور  
بوحدانية الكائن ، ووحدانية الحياة ، ووحدانية المصير الانساني . أن من  
لا يلائم بين فكره وعمله سوف يسقط في هوة التنزق الداخلي ،  
والنضال مع النفس .

لنستمع إلى « كريستوفر كودويل » المفكر الانجليزي يقول عشية  
الحرب الإسبانية ، بين الجمهوريين واعداء الديمقراطية ، وهو يتخذ  
أهنته للرحيل إلى هناك :

« أنك تعرف مبلغ احساسي بأهمية الحرية الديمقراطية .. أن  
الجيش الشعبي الإسباني أشد ما يكون حاجة إلى المساعدة ، ذلك لأن  
كفاحهم إذا ما مني بالخيبة والفشل سوف يكون بالتأكيد كفاحنا في  
الغد . وما دام النظر والعمل كلا واحدا في اعتقادي ، فانه ليبس  
واضحا ، أين يدعوني واجبي . » !

فلماذا يسير شاب في التاسعة والعشرين من عمره ، إلى حتفه ،  
في وطن غير وطنه ؟ أية قوة تدفعه إلى هجران حياته ووضع مستقبله  
وعالمه كله .. إلا أن تكون الفكرة التي يؤمن بها ، قد تمشت في وجوده  
كله ، بحيث أصبح من المستحيل عليه أن يفصلها عن وجوده نفسه ؟

ومع ذلك فلم يكن هناك كودويل وحده . لقد ذهب أحرار العالم  
يدافعون عن الحرية الديمقراطية وهي نستشهد على أرض إسبانيا .  
وتكون اللواء الدولي الذي ضم متطوعين من اثنتي عشرة جنسية جاءوا  
من كل الاطراف القصية .. منهم ضابط يوغوسلافي سيلعب فيما بعد  
دورا ذا شأن خطير في بلاده ، اسمه « جوزيب بروز تيتو » ، ومنهم  
إيلوار ، وأراجون ، وفوكس ، وجيست ، وفوتشيك ، وفاسيت ، وبيكاسو ،  
ولوركا .. فلقد كانت « إسبانيا في القلب » حقا كما قال ذلك فسي  
ديوانه « بابلو نيرودا » .

وما الذي أتى بكل هؤلاء الشعراء والكتاب والمفكرين جميعا ؟ لقد  
كانوا كلهم يدينون بمنهج واحد في الفكر والحياة ، وشعار واحد للفكر  
والحياة : لقد دأب المفكرون حتى الآن على تفسير العالم ، ولقد أن  
الأوان لتغييره !

وقاضت طرقات إسبانيا يومها بطوفان من الدماء . وسقط على

## الفقر في الولايات المتحدة

بقلم ميكائيل هارنفتون

ترجمة ادوار الخراط

## الوجه الآخر لأميركا ..

ليس « الوجه الآخر لأميركا » رحلة عاطفية يقوم بها في أحياء « ولفير ستيت » كاتب أميركي غاضب  
إمام الخمسين مليونا من الفقراء المنسيين المنبوذين . بل أن « ميكائيل هارنفتون » يعلن غضبه وثورته  
بصفته عالما اجتماعيا واقتصاديا . أن الفقر في الولايات المتحدة كتلة ، دولة ضمن الدولة ، نظام خلقه نظام .  
وليس فيه ما يشبه اليأس الآسيوي الذي يعتبر القضاء عليه هدفا قوميا لأنه نصيب الاكثرية . ولكن هل  
يستطيع الأميركيون الذين ينعم ثلاثة أرباعهم بأعلى مستوى للحياة في العالم أن يتحملوا وقتا طويلا مشهد  
هذا الفقر الذي لا مثيل له ، وهؤلاء الفقراء ( الخمسين مليونا ) الذين لم يعرف التاريخ أعجب منهم ؟  
والمؤلف بيرهن ، كما يقول كاتب المقدمة كلود روا ، أن كون الإنسان فقيرا لا يعني أنه يملك ما لا أقل من  
غيره ، بل أن القلة لديه في كل شيء ، في الذكاء ، في الصحة المعنوية والبدنية ، في الروح الاجتماعية .  
« أن الفقر لا يعني أن الإنسان يملك أقل ، بل يعني أيضا أنه يعيش أقل ! » .

صدر حديثا

منشورات دار الآداب